أسس الحكم الشوري الموسع في الإسلام

(الحلقة الثالثة عشرة)

2 - الأنموذج الإرشادي العام لعلم الاجتماع الإسلامي

يتأسس المجتمع الإنساني في الإسلام على الركائز أو الكياناتِ النظريةِ التالية:

2.1) "الرجل الفطري الكوني"، ويؤسس له النّصّ القرآني التالي:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: ٣٠.

ونفهم من هذا النص أنّ البشر يتمتعون من جهة تكوينهم الوراثي (الجيني)، بحسب أفقنا المعرفي الحالي، بطبيعة خِلقية ثابتة "**غير طافرة طبيعياً**"، و لا "**انتحارية ذاتيا**"، ولا "**فاسدة تلقائيا**".

ومن المسلم به، بحسب أفقنا المعرفي الحالي، أن برامج الخلية البشرية محفوظة بدرجة عالية، بل زودت بالقدرة على ترميم ذاتها بذاتها وإصلاح ما أصابه الخلل منها. وهي تقوم بذلك تلقائيا، ما لم يقم عالم ما أو طاقم علمي في عصرنا أو في العصور المستقبلية القادمة **بتجارب فرانكاينشطاينية**، نسبة إلى فرانكاينشطاين (*Frankenstein*) {صورة للمثل **بوريس كارلوف** (Boris Karloff) في دور غول فرانكاينشطاين} ، على المورّثات الإنسانية لتغيير ما برمجت له في الأزل.

وهو أمر وارد لورود النص القرآني بإمكانه:

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ۖ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ النساء: ١١٧ – ١١٩.

قلت:

ويترتب على استقرار **الخلية البشرية** استقرار **الإنسان الفطري** نفسه.

لذلك أمكن اتخاذ مفهوم الإنسان الفطري في علم الاجتماع الإسلامي ك معيار أساسي لقياس كل الحاجياتِ الإنسانيةِ الفطرية ، بمعزل عن الفسادِ الاجتماعي أو البيئي الطارئين عليه، والذين يؤثران فيه بحكم تواجده بداخل مجاليهما. {وسنورد لاحقا أمثلة لهذا التنزيل}.

2.1) العائلة الطبيعية التقليدية.

ويؤسس لها النّصِّ القرآني التالي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ النساء: ١.

وتفصل هذه الآية الارتباطات الأفقية والرأسية التي يتأسس عليها أيّ مجتمع إنساني.

ذلك أن خَلْق الإنسان مِنْ نفس واحدة وهي: آدم، ثم خلق زوجه منه وهي: حواء، ثم إنسال كُلّ البشرية مِنْهما، يعني أن الإنسانية تنحدر كلها من زوج وحيدِ.

وهو ما يؤسس لمبدأ المساواة بين أفراد المجتمع في الإسلام، حيث يعتبرهم متساوين، كأسنان المشط، لا يمكن أن يعلو أحدهم على آخر بنسب، أو لون، أو عرق، أو مذهب،.....إلخ.، وإن كان الواقع الاجتماعي المترهل المعاصر يخالف هذا الأصل.

وتعد"العائلة الإنسانية الطبيعية" إحدى الركائز الثابتة للمجتمع الإسلامي، حيث أن المجتمع ما هو سوى جمع جموع لكل العائلات المنضوية تحته، ويخضع من وجهة نظر الإسلام لثلاث اعتبارات ناظمة:

1) سيادة الله،
2) وحدة الأسلافِ،
3) رابطة الدمِّ.

ويفهم من هذا الانتظام، أن العوائلُ البشرية تؤسس عبر أنسابها وعبر زيجاتها المختلفة لشبكة متداخلة من علاقات الدم والقربى تعمل متكاثفة لخلق نوع من التضامن، يُمْكِنُها من الصمود

بنجاح أكبر متى تعرض المجتمع للأزمات، وضعفت الدولة عن القيام بواجباتها المناط بها في الهندسة الاجتماعية العامة، التي يتطلبها العصر.

قلت:

وتعتبر العائلة مشتلاً للأطفال تشكل تفكيرهم ومخيالهم الجماعي، وتطبعهم ببصمتها التربوية الدائمة، إما خيراً أو شرا، بحيث يصعب عليهم تغيير ما لقنوه ونفث في روعهم من قناعات خلال هذه الحقبة الزمنية القصيرة في المستقبل، اللهم بشق الأنفس، كما تشهد لذلك آيات قرآنية كثيرة:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ البقرة: ١٧٠.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ المائدة: ١٠٤

وكذلك الحديث الثابت إلى أبي هريرة:

﴿ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه﴾

أنظر تخريج الخبر ودرجة وثوقية نقله في اللوح المرفق.

قلت:

من المنتظرً أن يعاني الأطفال الذين قدر لهم أن يترعرعوا في حضن عوائلِ مُحَطّمةِ، من خلل في تربيتهم تنعكس آثارها سلباً عليهم ليعانوا:

أ) من ضعف في شخصياتهم،

ب) وعدم الثقة في أنفسهم،

مما يتسبب في افتقادهم للعادات والأعراف الشائعة في المجتمع التي تضمن لهم التوافق مع قيم المجتمع كي يتمكنوا من التعايش معها بدون منغصات.

وسيعاني الأطفال بشكل خاص في حالة:

أ) انهيار العلاقات الزوجية بالطلاق،

ب) وفي الحالاتِ التي تصبح فيها الأحوال الاقتصاديةِ قاسيةً، والمعايش ضنكة، حيث ترتفع معدلات البطالةِ وتنتشر الفاقةِ بين شرائح كبيرة من مكونات المجتمع، ويقذف بالأطفال إلى الشارع لعدم قدرة العائل على إعالة نفسه ومن يعول.

فالعائلة تفقد في هاتين الحالتين مناعتها الذاتية، وتصبح عرضة للتفكك وللإصابة بالأمراض الاجتماعية المختلفة، مثل: شيوع الجريمة، واستعمال المخدّرات، بله وكثرة لجوء أرباب بعض الأسر الرهيفة التدين، أو الجاهلة، إلى الانتحار للتخلص من وطأة الواقع الذي لم يعد يرحم أو يطاق تحمله.

قلت:

وتلافياً لحصول مثل هذه الكوارث الاجتماعية، فلا يتصور في المجتمع الإسلامي أن تبقى الدولة على الحياد {وسيأتي تفصيل بمهمات الدولة في الإسلام لاحقا} متى بدأت قابليةِ النجاح وحظوظ الاستقرار للعائلةِ الطبيعيةِ تعاني من الضعف أو الترهل، إذ كما هو معروفُ، ف القانون وثقافة المجتمع يرتبطان ارتباطا وثيقاً ضمن حركة ارتكاسية ارتجاعية، حيث بمجرد حصول تغيير في أحد المكونات يؤثر في النهاية على باقي المكونات الأخرى، وهكذا دواليك في دورات جهنمية تتغذي على نفسها، مفضية في النهاية إلى تفكيك أواصر العائلة ثم المجتمع ككل.

قلت:

وبما أن الإفساد في الأرض، سمة بشرية مميزة كما تفصح عن ذلك الآية 41 من سورة الروم:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

والذي قد يتخذ له أشكالا وتمظهرات شتى، بالإضافة إلى الفتن والابتلاءات التي هي قدر مقدور لا مفر منها، بحسب الآية 2 من سورة الملك:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

فلا مفر للعوائل، وهي النويات الصغرى في المجتمع، من التعرض لبعض آثارها المدمرة مثل: الضغط الإجتماعي؛ و الفاقة، و الحروب، و الأمراض،.... الخ، إلا أن قابلية العائلة المصابة للإصلاح تظل دوما ممكنة، لإرجاعها إلى حالتها الطبيعيةِ ووظيفتِها الأصلية، متى توفر للمجتمع

نظام تكافلي {سيأتي وصف لمثل هذا النظام لاحقا} يضمن الأساسيات من: تطبيب، وتعليم، وشغل لأفراده، بدل الصدقات المخلة بالمروءة.

فدور الدولة الإسلامية هنا أساسي لا يمكن تجاوزه، ويعوض دور الأقرباءِ في المجتمعات القبلية من جهة ارتباطهم بالدم، لأنه عام وشامل يستظل بمنافعه كل مواطني الدولة، بغض النّظر عن اعتقاداتهم المختلفة ومذاهبهم.

لا زواج صالح في الإسلام سوى الزواج الفطري

بما أنّ الزواجَ الوحيدَ المعترفَ به مِن قِبل الديانات الإبراهيمية هو الزواج الفطري، بين ذكر وأنثى، فلا يتصور في المطلق إمكان إعادة تعريف الزواج في هذه المجتمعات خارج هذا الإطار الفطري.

لذا يمتنع في المطلق إعادة تعريف الزواج ضمن العقود الفاسدة الثلاث التالية:

1) الزواج المثلي، بعقد خاصّ بين فردين من جنس واحد،
2) العقد المشترك في امرأة بين عدة ذكور،
3) أيّ نوع من الترتيبات التَعَاقُدِيَّة لأيّ مدة من الوقتِ بين عدد من الأطرافِ البالغةِ المتفقة على أي زيجة أو ارتباط جنسي خارج الزواج الفطري،

فكُلّ هذه الزيجات الثلاث تعتبر زيجات فاسدة ونوعاً من الفحشاء والمنكر المستعلن، التي يجب التصدي لها باعتبارها حالات مرضية (باثولوجية)، وأن يُتعاملَ معها كشذوذ حضاري يصيب المجتمعات المتحضرة الشائخة قبل سقوطها، حال ما نعاين من انتشار أنماطها في الدول الغربية في عصرنا الحاضر.

انتهى وتليه الحلقة 14

تعريف الأمم وأنواعها